مفيد نحله

الثقافة العربية الراهنة وآفاق تطوّرها في مواجهة الغزو الثقافي المضادّ

مدخل

أين تقف ثقافتنا العربية في ظل متغيرات هذا العصر؟

سؤال يطرح نفسه دائماً، وللاجابة على هذا السؤال، لا بد أن نؤكد على مجموعة حقائق منها:

– إن ثقافتنا العربية تؤمن بضرورة التطور، ذلك لأنها متفتحة على الثقافات المختلفة وتأخذ منها وتعطي.

– كما أن الثقافة العربية لا تعيش بمزاج عصر سابق ولا تتقبل مزاجاً أجنبياً تنصهر فيه، ولكنها تجعل من جذورها مرآة لاندفاعها نحو الكمال.

– وتؤمن كذلك بأن التوقف ضد طبيعة الحياة، ذلك لأنها تملك القدرة على الانطلاق والتجدد دون أن تفقد عامل الوحدة والارتباط بالماضي، وهكذا ستظل قادرة على تشكيل نفسها حسب حاجات العصر واختلاف البيئات دون أن تتخلى عن قيمتها ومقوماتها الأساسية.

هل استطاعت ثقافتنا العربية الوقوف أمام تيارات الفكر المتشعبة؟

وإذا صحّ ذلك فإلى أي مدى تحقّق لنا هذا الحد من الانحراف وراء تلك التيارات الفكرية؟

إننا إذا أردنا أن نتحدث عن آفاق التطور الثقافي في عالمنا العربي سنرى أن هذا التطور يتزامن مع التطورات الأخرى في تنظيم المجتمع العربي والفكر العربي..

وإذا كانت الثقافة وتطورها وثيقة الصلة بكل ما في المجتمع من جوانب حضارية، فإن تأثيراتها الإيجابية تظهر واضحة في التكامل البنائي لهذا المجتمع، وينعكس هذا التكامل سلباً وإيجاباً حسب مراحل التطور الفكري والثقافي.

ومن هنا يأتي دور تأصل الثقافة، وتظهر هذه الأهمية حين يتعمق التأصل الثقافي في الإنسان نفسه.. (فبقدر تعلقنا بقيم التراث ينبغي دوماً محاولة تجاوز ذلك إلى قيم أوسع تحولاً وأعلى منالاً، وهي القيم الإنسانية الخالدة في جوهرها، والمتغيرة في مظاهرها حسب العصور والمجتمعات، ولكن ليس لثقافة من الثقافات الحيّة أن تسعى إليها، إلا عن طريق الانغماس في التربة القومية، فاذ ذاك تكون نفحات الإنسانية عابقة فيها من حيث لم يقصد إليها..

وهنا يطرح سؤال نفسه مجدداً، أين مكانة الفرد من الثقافة؟

لا بد أن نشير إلى حقيقة أزلية، إذ أن مكانة الفرد في الثقافة العربية كانت ولا زالت حتى يومنا هذا محوراً للعمل الجماعي، وظلّ الاتجاه إلى الجماهير الشعبية منذ القدم لتسيير الثقافة والانطلاق بها إلى الامتداد الأرضي هو الهدف.. وهكذا تشكّلت المعادلة الجادة والتي تقول – (بأن الثقافة لا تكون صادقة إلا إذا كانت وتراً مشدوداً بين ما ينزع إليه الفرد من طموح وإبداع وبين ما تحتاج إليه الجماهير من وعي).

وإذا كانت هذه هي المعادلة التي نتجت عنها، فإن كثيراً من الإشارات التاريخية والزمنية تتوقف عند زحف الاستعمار على منطقتنا العربية بكل أشكاله.. وثبت من خلال الدراسة والمعاناة والمعايشة أن الاستعمار الثقافي كان يسعى دائماً إلى بتر المثقفين العرب عن ثقافتهم الأصلية وربطهم بقيم الحضارة الغربية، وإقناعهم بأن هذه القيم هي حقائق إنسانية مطلقة.

وظهر من يتساءل:

إذا كانت ثقافتنا قد تخلفت عن ركب الحضارة، فهذا يعني أن هذه الثقافة لا تستطيع مسايرة التطور والتقدم.. وهكذا بدأت معادلة أخرى ترتسم في أذهان الأجيال.. (الثقافة القديمة لا تصلح للحياة المعاصرة المنطلقة نحو آفاق التقدم، ثم يصبح البديل غزو ثقافي للانتقال من هامش التاريخ إلى الحياة المعاصرة).

واقتراباً من هذه المعادلة يصبح المجتمع غير قادر على التحرّك باتجاه فكري أصيل.. وعليه اذن أن يتقوقع وأن يتشقق من الداخل..

وتبقى المسألة خطيرة حينئذ.. ذلك أن الانحلال التدريجي سوف يأكل المجتمعات الصغيرة ولا يبقى عليها، وبذلك تنعكس آثار هذه المعادلة بشكل سالب لا يصدق..

ثمة شيء خطير أيضاً، هو أن هذه التقطعات الفكرية ناجمة عن تناقضات عديدة في المجتمع الواحد.. ولعل أهم مصدر لهذه

التقطعات في المجال الثقافي هذه الثنائية بين أنماط ثقافية تقليدية ونماذج ثقافية دخيلة مستوردة.

وهنا لا بد أن تقف ثقافتنا الواعية حيث تصبح قادرة على تشكيل المجتمعات وتكوينها من خلال معيار ملتزم بأسس ثقافية متطورة.. لعلها تساير ما يجري، ولعلها تلتزم بأصالة التراث الحضاري.

ذلك أمر صعب..

ولكنه ومع إدراكنا لنمو ثقافتنا تصبح الأمور الثقافية ميسورة من خلال منظور تاريخي، ومن خلال معيار فكري متقدم..

ذلك مطلب، ومن أجل هذا المطلب الشعبي يصبح لزاماً على كل المثقفين العرب أن يتمحوروا حول أسباب التقدم الفكري والثقافي. وهذا يعني أن جماهير الشعب الواعية تظل قادرة على امتصاص كل الأفكار الوافدة وبلورتها بالطريقة التي تخدم أهداف الأمة، وتدفع الأجيال لأن تركز من خلال انتقائها مع ما يتلاءم واصالة هذه الأمة لكي تكون انطلاقتنا الحضارية قوية ومتقدمة.

وعلينا والحال هذه أن نسعى جادين إلى وضع ثقافتنا الوطنية على المحك، بمعنى أننا يجب أن لا نغفل أن من أسباب نجاحنا في الماضي هو قدرتنا على التحكم بكل قنوات الفكر المفتوحة على ثقافتنا، وهذا يلزمنا الآن لأن نفتح المجال وبشتى الطرق لأن يكون احتكاك بين ثقافتنا وثقافات العالم المتطورة.. ومتى تحقق ذلك يصبح من الضروري أن يكون هناك التزام، لئلا تحدث مفاجآت أو فراغ.. وكثيراً ما تحدث تلك المفاجآت في ثقافة إحدى البلدان النامية حين تتعرض لغزو ثقافي متطور. فلا تلبث أن تنهار تلك الثقافة الوطنية لذلك البلد أمام ذلك التيار الثقافي القوي..

إن ثقافتنا العربية وعلى مرّ العصور أثبتت أنها قادرة على ملء الفراغ حتى في حالات الانحطاط والسقوط.. وظلت كذلك تنير الدروب المعتمة أمام أولئك الباحثين والدارسين والمستشرقين، وأثبتت لهم بأن هذه الثقافة هي الوسيلة والركيزة لإعادة لملمة الوطن العربي، وتجديد نشاطه في الوحدة والانبعاث والتقدم.

وقبل البدء بالبحث عن مفهوم التنمية الثقافية وابعاد التطور الثقافي لا بد من وقفة قصيرة حول معنى الثقافة.

الثقافة:

تعريف ومفهوم

الثقافة كلمة عريقة في لغتنا، بمعنى صقل النفس والمنطق والفطانة، ثم استعملت للدلالة على الرقي الفكري والأدبي والاجتماعي للأفراد والجماعات .

وكما أن كلمة ثقافة عند استعمالها في لغتنا العربية هي كلمة مجازية مأخوذة من تثقيف الرمح أو تسويته فهي في اللغة الانجليزية أيضاً مجازية، وإذا تجاوزنا المعنى اللغوي لكلمة الثقافة وأخذنا المعنى الاصطلاحي الذي أصبحت تأخذه الكلمة في مجالات الأدب والتربية وعلم النفس وعلم الاجتماع العام وعلم الأجناس فإننا نجد لها العديد من المعاني والتعريفات والتفسيرات التي تختلف في اتساع أو ضيق معناها من تعريف إلى آخر.

ومن هذه التعريفات الشاملة والعامة ما فسّرها به الدكتور عبد الله الدايم في بعض أبحاثه- من أنها أنماط السلوك المعنوي والمادي السائدة لدى شعب من الشعوب، وتدخل في ذلك أنماط السلوك الخاصة بالمأكل والمشرب والملبس وسواها من مظاهر الحياة المادية كما تدخل فيه أنماط النتاج الفكري والأدبي والفني والعلمي.

وجوهر هذا التعريف يثبت بالدلالة على أن ثقافة أية أمة هي التي تحدد أصالتها وتميزها عن أي أمة فوق هذه الأرض، ومن هنا كان الشرط الأول للثقافة وأصالتها أو خصوصيتها أي تعبيرها عما يميز شعباً عن آخر. وتصويرها للهوية الخاصة بكل أمة، ونقلها للعطاء المتفرّد الفذّ الذي تود أمة من الأمم أن تضيفه إلى تراث الإنسانية، ومن هنا حق أن نقول ان لا ثقافة لمن لا أصالة عنده أي لمن لا يملك من التجارب الفكرية والأدبية والفنية والذاتية الفريدة ما يقدم به رافداً جديداً للجهد الإنساني الشامل .

وهكذا يتحدد لنا الآن أن الثقافة بمعناها الواسع تشمل مكانة أنماط السلوك الإنساني مادياً ومعنوياً.. كما تشمل العادات والتقاليد والاعراف والقيم والخبرات والاتجاهات والنظم السائدة في المجتمع والمؤسسات الموجودة فيه، فهي تشمل كل ما صنعه الإنسان بيده أو أنتجه بعقله وفكره من علم وفنون وتقنيات ومصنوعات ليحصل على أمنه واستقراره وليحقق حاجاته الجسمية والنفسية والاجتماعية.انها تشمل الأهداف التي حددها المجتمع لنفسه والقيم التي يدين بها، والوسائل التي يستعملها الناس، واللغة التي يتحدثون بها، والقوانين والتشريعات التي يتعاملون من خلالها في مجتمعاتها المحلية والأدوات التي يبتكرها الإنسان ويستخدمها في إنتاج السلع والخدمات التي يحتاجها لاشباع حاجياته الصناعية التي أنتجها والمنشآت التي طورها.

ومن خلال هذه المجهودات الحياتية تتوزع أسباب الحياة، لتصل إلى كل يد عامله، ولتصل إلى كل عقل يفكر، وهكذا تترابط الحياة البشرية، وتتوثق من خلال ثقافة حرصت على بلورة هذه الأهداف ورفعتها درجة فوق درجة في بناء متكامل مرحلياً وتكنولوجياً، ووسعت الطرق المفتوحة من حوله ليبدأ حياته العملية قوياً راسخاً.

ومعنى هذا أن الثقافة تشمل اللغة والعادات والتقاليد والمؤسسات الاجتماعية والمستويات والمفاهيم والأفكار إلى غير ذلك مما نجده في البيئة الاجتماعية من صنع الإنسان.. والثقافة في التراث الاجتماعي الذي أخذه الجيل الحاضر من الأجيال السابقة والذي لا يستطيع الجنس البشري بدونه أن يصبح بشراً.. لأن

هذا التراث الاجتماعي هو الذي يميزه عن الحيوان، ويتميز هذا التراث الثقافي عن التراث البيولوجي في أن هذا الأخير يولد الإنسان به ولا ذنب له فيه ولا يستطيع تغييره، أما التراث الاجتماعي فهو الذي يعيش فيه.

وفي إطار المعنى الواسع المتقدم للثقافة، يذكر عبد المنعم الصاوي) في أحد كتبه التي تعرض فيها لتعريف الثقافة أن الثقافة ليست هي التعليم، وإن كان التعليم أحد أسسها ووسائلها، كذلك ليست الثقافة هي التربية وإن كانت التربية ذات تأثير عليها... كذلك الثقافة ليست هي العلم، وإن كان العلم كالتعليم والتربية له أثره على الثقافة، كذلك الثقافة ليست هذه العادات والتقاليد.. وإن كانت هذه.. العادات والتقاليد ذات أثر كبير على الثقافة، كذلك الثقافة ليست هي الدين ولا العقيدة والمذهب، وإن كان للدين والعقيدة والمذهب أكبر الأثر على الثقافة «إن المعارف وحدها لا تكون الثقافة، كذلك لا تكونها الانطباعات الوجدانية وحدها ولا العادات والتقاليد وحدها ولا القيم الأخلاقية وحدها وإنما تتكون الثقافة من كل ذلك.. ».

وبعد هذه العجالة فإننا نتوصل إلى التفسير التالي للثقافة:

إنها حصيلة ما يتجمع في العقل من معارف وما يكمن في الوجدان من انطباعات، وما يستقر في الضمير من عقائد، وما يرسب في النفس من عادات وتقاليد.

وإذا كانت الحضارة هي المظهر المادي للثقافة فإن الثقافة هي المظهر العقلي للحضارة.

والحضارة تترجم الثقافة إلى تصوير ونحت ونقش وبناء وآثار فنية أخرى فتدل على الثقافة دلالة مادية تبقى على مرّ الزمن.

كذلك فالثقافة تترجم هذه الحضارة المادية إلى مذهب عام في السلوك، يعكس القيم المختلفة في الحياة العقلية والوجدانية والمادية والأخلاقية جميعاً.

فالحضارة والثقافة إذن متقابلتان.

وهذه التعريفات تقودنا للتوقف قليلاً عند بعض الحواجز الاجتماعية والتداخلات المترامنة مع بناء تلك المجتمعات ذلك أن الثقافة بمعناها العلمي الواسع تتضمن كل ما يمكن أن يعلم عن طريق العلاقات الإنسانية المتداخلة، كما يتضمن اللغة والعادات والتقاليد والنظم الاجتماعية جميعاً.

ومن خلال هذه الملاحظة الدقيقة، يتراءى لنا قدرة الثقافة على خلق المجتمعات البشرية، إذ عن طريقها يتم انتقال عمليات التعليم والتعلم سواء كانت هذه العمليات منتظمة أو غير منتظمة، وهنا يأتي دور ثقافة المجتمع لبلورة النماذج المتصلة به اتصالاً وثيقاً عن طريق التقاليد والعادات للجماعة البشرية.

* * *

المسائل الثقافية بين التصنيف والمحتوى

ما هو دور الثقافة على المستوى الفردي..

وهل ثقافة الأفراد في أي مجتمع تخضع لمزاجية أولئك المتعلمين..

وإذا كان الأمر كذلك فكيف نفسّر ارتباط الثقافة بالعلم ذاته..

وللإجابة على هذه الأسئلة لا بد أن نتوقف قليلاً عند حركة الأفراد في المجتمع، فعلى المستوى الفردي تصبح الثقافة عامة، فليس هناك من هو مثقف في التاريخ مثلاً، بل هناك عالم في التاريخ، هناك مدرس في التاريخ.

وهي أن الثقافة عند الأفراد صفة عقلية، في تكوين اولئك واتساع أفقهم..

وبما أننا نعيش في عصر العلم فإنه من الطبيعي أن يستخدم الفرد بعض ثقافته من العلم بعد أن يدرسه ويتمثله على هذه الطريقة يصبح قليل الجدوى لا فائدة منه.

وعلينا أن نذكر، ونحن نعتبر العلم أهم مصادر الثقافة أن العلم آلات وتقنيات بل هذه كلها آثار للعلم، والعلم في حقيقته طريقة ونظرة معينة إلى المسائل أو أسلوب للحياة وإيمان بالذكاء الإنساني.

وحتى يصبح الفرد مثقفاً، عليه أن يكون متخصصاً ومتعمقاً في علمه، كما عليه أن يكون ملماً بالقضايا الكبرى للعلوم وما أحدثته هذه القضايا من تغييرات عصرية وتأثيرات فكرية في الحياة الإنسانية.. وعليه والحال هذه أن يكون على مستوى حياة العصر الذي يعيش فيه، كما عليه أن يتابع تلك القيم الجادة، والتي ترفع من مجتمعه إلى مصاف المجتمعات المتطورة والمناضلة، وهنا يستطيع الفرد المثقف أن يبذل قصارى جهده في سبيل التغيير الواعي.. لا أن يضرب عرض الحائط ما جاء به الآخرون من ثقافة وتقدميه ويهملها أو يتغاضى عنها لأنها لا ترقى بمجتمعه أو لأنها لا تستطيع رفعه بين المجتمعات الأخرى.. وهذا يتطلب من كل المثقفين النظرة الشمولية للمواقف الحياتية والإنسانية كما يتطلب التمسك بعنصر الاختصاص وما يرتبط به من أمانه وتشبع بروح الخدمة الاجتماعية والمشاركة الجماهيرية الصادقة والمثابرة.

ومن هنا تبرز مسألة ثقافية من طراز رفيع، وهي أن المثقف بما يحمله من وجدان يرتبط بآمال الجماهير وآلامهم وأحزانهم، وهو الذي تقع عليه مسئولية تجاوز التخلف الذي يشوه المجتمعات المحلية والتي ارتبطت إلى حد كبير بالقيم الجديدة الوافدة عليها من الثقافات الهزيلة، وإذا كان هذا هو دور الإنسان المثقف، فلأن دوره طليعي ومن كان طليعياً فهو ملتزم وعليه فلا بد أن تظل حركته واسعة ولها قدرة على احداث التغيير الشامل ونمو الفعاليات المتقدمة واتساع آفاقها.

وما دمنا بهذا الصدد.. فلا بد أن نلقي نظرة موضوعية على تقسيمات الثقافة وخصائصها العامة.

أورد الدكتور عمر الشيباني في إحدى مقالاته بعض تقسيمات الثقافة ونمو أشكال مجتمعاتنا المحلية العربية معتمداً في ذلك على شرح متكامل لهذه التصنيفات الجديدة.

الثقافة المادية..

وهي الثقافة التي تتمثل في أنماط المأكل والمشرب وأنواع الأدوات المستخدمة.

الثقافة المعنوية..

وتتمثل في المعارف والأفكار والمشاعر والعلوم والآداب والفنون وهذه التقسيمات صورية انها متداخلة العناصر.

وإذا جاز لنا أن نقسم الثقافة حسب المحتوى والانتشار وتوزعها في المجتمعات الصغيرة والكبيرة فإن الأمر يصبح مختلفاً تماماً.

فهي في محتواها تتوزع على مستوى فردي وجماعي، وتكون عند الأفراد ذات صفة عقلية، في حين أنها عند الجماعات تكون شمولية لأنها تنسحب على اللغة والعادات والقيم والتقاليد.

أما إذا انتشرت الثقافة فيكون انتشارها على الشكل التالي:

- ثقافة محلية - ثقافة وطنية - ثقافة إقليمية - ثقافة عالمية.

أما علماء الاجتماع فإن لهم رأياً آخر، ذلك أنهم ينظرون إلى الثقافة من زوايا متغيرة الحركة والسرعة لأنهم يربطون حركة المجتمع بحركة الثقافة، وهكذا تختلف نظرة علماء الاجتماع عن غيرهم من المتخصصين في الأمور التطبيقية والتجريبية، لذا فقد جاءت الثقافة حسب رأيهم على نوعيها:

- ديناميكية... متغيرة - وجامدة.

ومن خلال نظرتنا للواقع وخاصة مجتمعاتنا العربية المتطورة فإن ثقافته الديناميكية ليست معزولة عن الأحداث وعن التطورات المرافقة لهذه الأحداث... كما أن هذه الثقافة هي التي تمنح الأفراد حرية الحركة والتطور والانقلاب كما أنها تفتح الكثير من النوافذ على الثقافات الأخرى لتتأثر بها أو تؤثر فيها، فتأخذ وتعطي.

أما الثقافة الجامدة فهي تركز اهتمامات الأفراد والأجيال حول أوضاع معينة ينعدم فيها التجريب ويقل معها التجديد.. ويصبح الرجوع إلى الماضي حنيناً متزايداً كما يصبح جيل الكبار هو الآمر الناهي.. وهكذا تلتزم المجتمعات ذات الثقافات الراكدة بالأماني والوعود المستقبلية.

* * *

تطور الثقافة العربية

يتساءل البعض حول إذا ما كان تراثنا وماضينا وفكرنا حصيلة تفاعل داخلي بحت.. أم أن هناك تداخلات مع ثقافات الأمم المجاورة أفرزت هذا التراث؟.

هذا السؤال يلح علينا أن نعود قليلاً إلى الوراء.. لنسبر أغوار ثقافتنا العربية، وموازاة هذه الثقافة لثقافات الأمم المجاورة ثم تفاعلها مع تلك الحضارات.

ونتيجة لديناميكية ثقافتنا العربية وأصالتها فقد استوعبت تلك الثقافات المجاورة، وفتحت الأبواب لادماج العناصر الجديدة في القوة الأصيلة لثقافتنا العربية، ولكون طاقاتنا المتفتحة لا زالت في عنفوانها، فإن مجموعة الأفكار الجديدة سرعان ما ذابت، وسرعان ما انتشرت وتوزعت في شرايين حضارتنا المتجددة.. وذلك ما أعطاها دفعات من التقدم والارتياح، وهذا ما أكسب مثقفينا النضج ومنحهم الثقة.

ترى كيف بدأ التعامل مع ثقافات الأمم المجاورة؟.. وهل حقاً بُني هذا التعامل على أسس حضارية مكتسبة..؟

وهنا لا بد أن نتوقف مع الزمن قليلاً للإجابة على هذا السؤال..

نحن نذكر سنوات الفتح الأولى، ونذكر كذلك كيف سقطت الدول المجاورة لدولتنا العربية في ذلك الزمن.. ومن هنا تفتحت عيون المثقفين على حضارات تلك الأمم.. وبدأت الأفكار الجديدة تلتحم بشتى الطرق العلمية مع ثقافتنا العربية.. ولقد استطاع المترجمون والكتاب العرب، أن يقتبسوا من الأنظمة المجاورة ما يناسب طموحاتهم ودولتهم الجديدة.. معتمدين في ذلك على معادلات بديهية - ذلك لو أنهم حاربوا تلك الثقافات بنفس الضراوة التي حاربوا فيها الجيوش لما استطاعوا أن يحققوا قفزات نوعية خلال عشرات السنين.. ولما استطاعوا أن ينتقلوا من حياة البداوة البسيطة إلى حياة الترف والحضارة المزدهرة.. كذلك فإن الكثيرين منهم وخاصة أولئك الملتزمين لم يستطيعوا تقبل الأفكار المستوردة من الأمم المجاورة، وشنوا عليها حرباً قاسية معلنين أن تلك الأفكار تخالف تعليمات العرف والتقاليد العربية.. ولم يأخذ القادة الأوائل برأي هؤلاء ولو تمّ ذلك لظلّت حضارتنا أسيرة بعض التقاليد الغربية حتى يومنا هذا.

ولقد اعتمد هؤلاء القادة على حل وسط.. لارضاء أولئك المتزمّتين ولمنح أولئك الآخذين بالأفكار الجديدة حريّة الحركة في الكشف عن حضارات الأمم والانتقال بأساليب حياتها ودمجها بنظم الحياة العربية الجديدة.

ولقد تمثّل هذا الحل، في أن يراعي المثقفون الجدد أصالة عروبتنا، واقتباس الأفكار الجديدة والتي تناسب طموحاتنا بعيداً عن الحساسية والتعقيد.. ومن هذا المنطلق الفكري المحدد.. بدأت الأفكار الجديدة تغزو واقعنا العربي وبدأت الثقافة العربية تسير وفق برنامج زمني دقيق وراحت هذه الثقافة تنتقل سريعة في شتى المسالك المفتوحة، لتبدأ مسيرة حضارية، جديدة.. وأثبتت هذه المسيرة وعلى مدى قرون متواصلة استمرارية الحياة واتصال العطاء الثقافي رغم كل معوقات النمو والاصلاح.

* * *

المد الفكري والتوسّع الثقافي

إذا كانت ثقافتنا العربية في الأزمنة الوسيطة قد تحققت من خلال اندماج العديد من الأفكار الجديدة للدول المجاورة، فكيف امتدت هذه الثقافة وتوسعت..؟ وهل كان لها ملامح وسمات متميزة في تلك الأزمنة؟ نظرة دقيقة على التركيب

البيولوجي لمجتمعاتنا العربية في العصور الوسيطة تجعلنا نؤمن بأن أجناساً كثيرة شكلت هذه المجتمعات العربية، ولقد تلاحمت هذه الشعوب وانصهرت في بوتقة واحدة، وراحت تفرز مجموعات من العلماء والمفكرين، كلهم شقوا طريقهم بصعوبة، وانتشروا لجمع التراجم واقتباس العلوم والمعارف، وخاضوا من أجل ذلك تجارب عديدة، أكسبتهم القدرة على تحقيق ما يطمحون إليه، وكان لتشجيع الحكام والقادة العرب أكبر الأثر في اثراء ثقافتنا العربية ووقوفها شامخة بين مجموعة الثقافات الجديدة.. ومن خلال هذا التشجيع للثقافة والمثقفين.. بدأت الانطلاقة الجديدة للثقافة العربية تحدد مساراتها بين شعوب الأرض، وبدأت الخيوط تتكامل لتوزّع ثراءها الفكري على مجموعات كبيرة من الشعوب الأوروبية والتي لا زالت تتخبّط في الظلام.

وهنا لا بدّ أن نتساءل..

ليس معقولاً أن تستوعب حضارتنا وهي في بداياتها الأول كل هذه الأفكار الجديدة.

كيف حوصرت هذه الأفكار وبرمجت ثم كيف اختير لها الطريق الواسع لتنطلق من خلاله قوية ومعززة؟

من خلال الدلالات الكثيرة الواضحة تبيّن لنا أن كل مبررات الخوف من طغيان الأفكار الجديدة، قد تلاشت، ذلك أن أصالة الثقافة العربية، وقدرة لغتنا على تجاوز كل أسباب الخوف، حاصرت هذه الأفكار وبلورتها في مجموعة من المداخلات الحضارية والثقافية، وأضافت إليها من القيم ما يناسب طموحات أمة متنامية، وما يناسب فكراً معززاً بقدرات وحكم قوي وثابت.

(وبفضل هذه الشجاعة في قبول الأفكار الجديدة ظهرت في دولتنا العربية مجموعة من الفلاسفة والعلماء والمؤرخين والمفكرين الاجتماعيين.. كانت منارة للعالم كله من خلال العصور الوسطى المظلمة، وكانت هذه الأسماء اللامعة هي التي قدمت فيها بعد، إشعاعها العلمي والفكري إلى أوروبا، وأسهمت بدور يتزايد الاعتراف به في انهاض العلم والفكر الأوروبيين ونقلها إلى عصر جديد).

لماذا الربط بين ثقافتنا العربية والزمن الماضي؟

لماذا لا نعمل دائماً على استنهاض ثقافتنا الغربية ليعود إليها الابداع والتجديد؟

وهنا لا بد من تغيير كيفية التعامل مع الماضي.. ولا يكون ذلك إلا إذا أنزلناه إلى مستوى الحياة العادية، لنستمد منه ما يبدو لنا صالحاً في وقت ما، نتحاور معه ونتخذ منه مراجع ومنطلقات معاً، بدون عملية الهضم هذه يبقى الماضي كالعبء الذي يثقل كاهلنا ولا يساهم في تطوير شؤوننا.

وهذا يعزز مفهوم ربط الثقافة بالزمن ذلك أن ما تحمله الثقافة من قيم واتجاهات ومواقف لا يكون لها مفعول في حياة الإنسان إلا إذا استطاعت تلك الثقافة على ضم توصال الزمان، أي ربط الحاضر بالماضي والمستقبل معاً.. وسيطرت عليها في نظرة موحدة وجهد متناسق..

لكن كيف السبيل إلى استنهاض ثقافتنا العربية، ما دمنا ننظر إلى تراثنا الحضاري نظرة منسية؟.. إننا لن نستطيع ذلك الآن.. لأن كثرة مثقفينا يشكون من عيب النقص إزاء الثقافات العالمية المعاصرة.

وإن هذه السمة التي ترتبت على تراجعات كثيرة من خلال الانهزام الثقافي على مرّ العصور هي التي جعلتنا نتوقف طويلاً إزاء كل ما هو جديد وحضاري وجعلتنا كذلك نفقد سبل المقاومة الفعالة إزاء الغزو الثقافي الذي ملأ علينا حياتنا وأعمى بصيرتنا.

وهذا كله هو الذي قاد بعض مفكرينا إلى اتباع أساليب التقليد الفارغة. وحين عممت هذه الأساليب وخضعت للتطبيق تبين أنها ضارة وملفقة، ولا تصلح لمجاراة ،لموحاتنا في النمو الفكري والازدهار الحضاري ورغم مقاومتنا لهذه الأساليب فإن قدرة الغالب ظلت هي الطاغية، وتعالت صيحاتنا من جديد تطالب بشتى الوسائل رفع هذا اللون من الغزو لأساليب حياتنا العصرية، وفي ظل تراكمات من التخلف عبر سنوات الجفاف الثقافي التي مرت على أمتنا.. بقينا محاصرين حتى يومنا هذا.

أصالتنا الثقافية:

الاستيعاب والتحدي

إن من أصعب الأمور أن يقوم المرء بعملية تنفيذ أو تصفية للتراث.. وذلك من أجل بلورة الأصالة صافية غير مختلطة.. لأن الاتصال والتبادل والأخذ والعطاء قديم قدم الحياة الإنسانية وهذا يعني أن ثقافتنا العربية امتدت عبر الزمن وغرفت من حضارات الأمم المجاورة، آخذة من تلك الحضارات ما يلائم انطلاقة الفتوحات العربية وما يناسب نظم الدولة العربية الجديدة.

ولا بدّ أن نتوقف قليلاً عند هذه المعادلة لأن أصالتنا الثقافية في ذلك الوقت كانت في الأصل مجموعة من التيارات الحضارية امتزجت وتشكلت، وتم استيعابها ثم عادت فتشكلت من جديد، وراحت تنبعث من جديد في كل البلدان التي تخضع للحكم العربي آنذاك.. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوزت ثقافتنا العربية إلى أوروبا ودويلاتها المختلفة، وأخذ هؤلاء من الفكر العربي وشكلوه بطرق تخدم نهجهم الفكري ومستقبلهم العلمي.. وهذا كله يقودنا إلى معادلة أكثر دقة.. ذلك أن مسألة وضع حد فاصل بين الأصيل والمستورد مسألة معقدة، ومن ثم الوقوف في وجه التفاعل الثقافي بحجة الحرص على أصالتنا هو موقف ينطوي على إغفال للعناصر العديدة وللمكونات الشديدة التباين، والتي أسهمت كلها في تكوين ما نطلق عليه نحن اسم الاصالة.

إن تراثنا - هو رمز الأصالة في ثقافتنا العربية وهو الذي يمدنا دائماً بالخامات المتجددة لنتخذ منها في هذا الرمس محوراً مشعاً لموقف عربي أصيل إزاء المواقف الإنسانية الكبرى

المطروحة في هذا العالم.. وهذا التراث.. هو الذي يدفعنا باستمرار لأن نشكل ثقافتنا العربية وسط هذا الخليط العجيب من الثقافات الأجنبية والمتصارعة ولكننا على العكس فتراثنا يقف بين ناقل لفكر أجنبي وإما ناقل لفكر عربي قديم.. فلا النقل في الحالة الأولى، ولا النشر في الحالة الثانية يصنع مفكراً عربياً معاصراً.. لأننا في الحالة الأولى سنفقد عنصر العروبة وفي الحالة الثانية سنفقد عنصر المعاصرة والمطلوب هو أن نستوحي لنخلق الجديد، سواء عبرنا المكان لننقل عن الثقافات الأجنبية أو عبرنا الزمان لننشر تراثنا القديم.

يقول الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه (تجديد الفكر العربي) -«انه إذا أوحت إلينا الثقافات بخلق ثقافي جديد، فيه النظرة العربية وفيه الوقفة العصرية كان من أهم ما يميز هذا النتاج الجديد - فيما أرجح - خروجنا إلى عالم الوقائع والأحداث.. بالمعايير نفسها التي كنا ننسجها لفظاً ثم نكتفي منها بذلك، ننظر إلى ذلك العالم الخارجي النظرة التي تلتمس فيه القوانين المطردة التي تنظمه، والتي على أساسها يمكن التخطيط لمسارات المستقبل تخطيطاً يحقق الأهداف المرجوة بدل أن ننظر إلى ذلك العالم النظرة التي تجعله ضارباً في تيه المصادفات لا ندري منه بماذا يفاجئنا به الغد».

إن عبورنا للزمن الماضي.. يعني قدرتنا مع الأخذ من تراثنا بما يناسب مرحلتنا المعاصرة في الحياة والتطور وأن ذلك الفنان الذي راح يغمس ريشته ليلون تلك المباني الهندسية الجميلة في زمن حضارتنا تلك، كذلك فإن شعراءنا الذين هندسوا تفعيلاتهم وقصائدهم، كل هذه الوقفات أوحت بالمجرد الكلي وجسدت خبرات طويلة وشاملة.. لقد وجدنا ذلك كله في تراثنا وهذا ما يدعونا الآن للعودة إلى هذا التراث لأن العودة إليه تركز من نتاجنا الثقافي وتدفعنا إلى أن نخطو خطوات كبيرة نحو تحقيق الثقافة العربية المعاصرة.

* * *

الثقافة العربية:

في مواجهة الغزو الثقافي

لمحة تاريخية

واجهت ثقافتنا العربية في بدء حياتها ونموها كثيراً من التحديات المذهبية والدينية والفلسفية، ملأت ثقافتنا العربية في بواكير عهدها حتى تفتحت على ثقافات الأمم المجاورة الهلينية والهندية والفارسية، وراحت تغرف منها ما يتلاءم مع تطورنا الحضاري والثقافي، وتحولت في النهاية هذه الثقافات إلى قوى غازية استغلها دعاة الباطنية والمانوية والقرامطة وأصبح لهذه القوى من الداخل دعاة وفلاسفة، وراحوا يصورون أنه لولا هذه الركائز الأجنبية لما كانت لنا ثقافة على الإطلاق.. وأن الباحث الدارس ليدرك حقيقة أن ثقافتنا العربية هي التي استوعبت كل هذه الثقافات وصهرتها في بوتقة واحدة وأخرجت منها تياراً له وزنه الحضاري والمعرفي، واستطاع هذا التيار أن يشكل ثورة في عالم الفكر والعقل آنذاك.. وظل هذا التيار قوياً متفاعلاً، حتى بداية عصر الانحطاط، والسقوط.. فجاء الغزو الثقافي مدعماً بالنفوذ الاستعماري.. وبدأ يعمل على انتزاع ثقافتنا العربية من جذورها وفصلها عن الماضي والتراث.. كما عمد إلى دعوى أن الثقافة القومية ليست هي الأساس وعليه فيجب أن يتبع المفكرون والمثقفون العرب نظرية الوحدة الفكرية العالمية، وتلك من أخطر دعوات التغريب والغزو الثقافي.

ومع بدايات عصر النهضة، تراجع الغزو العثماني وحلّ مكانه غزو فكري جديد، ممثلاً في رسل الاستعمار الحديث الذين حلّوا مبشرين بقيم جديدة وبأساليب جديدة.

وخضع عالمنا العربي في اتفاقيات سايكس بيكو ١٩١٦ إلى غزو استعماري شديد توزعت من خلاله أقطارنا العربية إلى مناطق نفوذ لدول تجهل ثقافتنا العربية ولا تعرف كيف تتعامل مع أصولها الحضارية.. ومن منظار فكري متعصب انطلق دعاة الغزو الثقافي الجديد للسيطرة على منابع ثقافتنا العربية وسد الطرق والمنافذ أمام مثقفينا، لكي يظلوا قابعين وراء مجموعة من الآمال والأماني فقط، لكنّ ثقافتنا ذات الجذور بدأت تشع لأولئك المفكرين العرب، وبدأت حركات الاستقلال تأخذ مجراها في الأقطار العربية وشهدت ساحات الوطن العربي على طول امتداده ثورات دامية من أجل الوقوف وباصرار في مواجهة أشكال الغزو الثقافي.

الغزو الثقافي تحد لثقافتنا العربية

حين نهضت اوروبا من سباتها في بداية القرن السادس عشر، كانت شمس العرب، والثقافة العربية تغرب قليلاً قليلاً، وزاد ذلك من عدائية السياسيين الأوروبيين لحضارتنا وثقافتنا.. والتي كان لاحتكاكهم بها فضل كبير في إزاحة تلك الغفوة الطويلة عن عيونهم (الحروب الصليبية).

إن الانتصارات التي حققتها اوروبا في ميادين الاكتشافات والعلوم التطبيقية وحرية الرأي دفعها إلى بداية عصر جديد من عبودية واستغلال الآخرين.

واستمرت هذه الروح العدائية لتسود دول اوروبا وامريكا على حد سواء حتى يومنا هذا، وكان واضحاً منذ البدء أن الوسائل التي كانت تعتمدها هذه الدول في السيطرة الاستعمارية لتحقيق أهدافها، كانت تتقدم وتتطور هي أيضاً مع تطور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

غير أن ازدحام هذه الدول وتسابقها المحموم على مناطق النفوذ وتنافسها الدموي في بعض الفترات التاريخية المعروفة، كل ذلك أدى إلى نشوء وضع ثقافي جديد - هو التفكير السياسي على أوسع مدى، فتحول الدين في اوروبا كالعلم نفسه إلى وسيلة سياسية يستخدمها الناس كلهم في أغراضهم الشخصية والعامة كما تستخدمها الأحزاب في سعيها وراء الحكم.

وهنا تدخلت الفلسفة، إذ أفضى الصراع بين العلم والدين - وهذا لم تعرفه ثقافة العرب - إلى نشوء حركة فلسفية،

وبعدها بدأ التفكير جاد للبحث عن الجوانب الاقتصادية.. وراحت الأحزاب السياسية تتكون وتتغلغل في صفوف الشعوب على أساس اقتصادي ونظرة اقتصادية، ولم يبق للتكتلات الدينية التي كانت سائدة من قبل أي تأثير في الحياة العامة في اوروبا.

وهكذا تغلبت الروح الاستعمارية على الأمم الأوروبية كلها وساقها ذلك إلى اعتماد العلم والتقنية والسياسة والفلسفة والاقتصاد في آخر مرحلة، وبهذا وصلت اوروبا في القرن التاسع عشر إلى نقطة تقف بها على طرف النقيض من الحضارة العربية والثقافية التي انبثقت عنها.

وانطلقت الروح العدائية الأوروبية نشطة على أرضنا العربية.. حيث وقفت علانية وراء الحركة الصهيونية وأعطيت هذه الحركة وعداً بإقامة وطن قومي في فلسطين العربية وكان هذا الوعد أسوأ ما وصلت إليه العقلية الأوروبية في تحدي الثقافة العربية وأصالة جذورها منذ أن كانت.. ولم يتوقف الأمر عند ذلك الوعد، بل استمرت هذه الدول الاستعمارية في الكشف عن خططها لإقامة الدولة الصهيونية على أرضنا العربية.. وارتفعت أصوات كثيرة تحارب هذه العدائية الجديدة، لكن الروح المنبثقة عن التوسع وامتداد النفوذ هي التي ظلت تسير الأمور السياسية والثقافية في الوطن العربي.. وبدأت ثقافتنا العربية معها يتزامن معها من ضعف تناضل من أجل رد الاعتبار لهذه الشعوب المغلوبة، ضد من تنكروا لاشعاع هذه الثقافة في أزمان مضت.. وانتصرت ثقافتنا العربية عندما ترسخت جذورها فوق كل الأرض العربية وبدأت شعوبنا تحارب من أجل الاستقلال، وتحقق لثقافتنا ما كانت تناضل من أجله وهكذا بدأت تعود لها الحياة من جديد، وبدأت العقول المفكرة تزيح الستار والاتربة عن مخطوطات العصور الوسيطة وبدأ المشتغلون بالتحقيق عن التراث يسهرون الليل لاعادة الحياة من جديد إلى كل مخطوط تراكمت عليه العصور، وبدأت تظهر للعالم من جديد نهضة ثقافية عربية راحت تأخذ طريقها وسط التوهج الحضاري العالمي.

* * *

فلسفة الغزو الثقافي

لعل أخطر ما نجح فيه الاستعمار بتر معظم مثقفي العالم الثالث عن ثقافاتهم القومية. وربطهم بقيم الحضارة الغربية، وإقناعهم بأن هذه القيم الغربية حقائق إنسانية مطلقة لا سبيل إلى التقدم بغير الإيمان بها والعمل بمقتضاها.. وما دام الغرب قد حقق كل هذا التقدم العلمي والتكنولوجي الذي غير مجرى التاريخ وطور حياة البشر فلا بد أن يكون نهجه الاجتماعي والثقافي أرقى وأقدر من كل نهج اجتماعي وثقافي في هذا العالم الثالث المتخلف(٨).

ذلك ما نسمعه كل يوم، وذلك ما نقرأه في الصحف المحلية والأجنبية التي تغزو سوقنا الثقافي أينما كان، وهذا ما يراه أطفالنا على الأجهزة المرئية، أو ما يسمعونه بآذانهم عبر المذياع، وحيث ما توجه ابناؤنا يجدون على الأرصفة الكتب المترجمة عن ثقافة الغرب فيأخذونها ويتركون كل ما له علاقة بثقافتنا المحلية أو العربية، وهذا التوجه المشدود إلى الثقافة الغربية لم يأت بطريق عفوي، وإنما جاء عبر سنوات من الغلبة الفكرية والاستعمارية لدولنا الضعيفة والمهزومة، وشكل بالتالي محصلة جديدة فيها انهزام ثقافي أمام ثقافة الغرب حتى يومنا هذا.

وقد رافق هذا التشكل الثقافي الجديدفلسفات تبرّر الضعف الإنشائي لثقافتنا العربية، ويؤيد الانسلاخ الثقافي عن أصالة تلك الثقافة والتوجه باندفاع قوي إلى الثقافة الداخلية.. ولقد وجدت هذه الدعوة طريقها وسط المجتمعات العربية المتخلفة، وراح الناس يدافعون عن هذه الفلسفة الجديدة من خلال منطلق حضاري وعصري، وأن العودة إلى القديم شيء سخيف.

وقد تأثرت الأجيال في عالمنا العربي، وأصبحت تنظر لما يجري على الساحة الثقافية بمنظار الحذر والترقب، ذلك لأن كل التبريرات المعطاة ليست مقنعة. وسقط في أيدي الأجيال نظرية جديدة تدعم طموحاتهم المستقبلية. وهي أن مجريات حياتنا الثقافية تمر الآن في معركة قاسية أشد ضراوة من معارك التحرير السياسية.

وعليهم ما دام الحال كذلك أن يتنبهوا لأخطار تلك الثقافات الوافدة لأنها تبعدهم عن مواقعهم الحضارية، وفي نفس الوقت تقتل فيهم القدرة على البحث والمتابعة.. ذلك لأن ثقافتنا العربية ليست متخلفة كما يصورها الاستعمار، لأنها كانت ثقافة رائدة في زمن مضى.

الثقافة المضادة إلى أين

بدأت الثقافة المضادة تظهر في عالمنا العربي حين بدأت المؤسسات التربوية والتعليمية المرافقة للحملات الاستعمارية تغزو الأرض العربية.

ومن خلال تلك المؤسسات كان الحرص على صياغة عقولنا صياغة من شأنها أن تجعلنا تابعين أو مستعبدين، وهكذا بدأت تظهر على السطح ثقافة جديدة يغلب عليها طابع الاحتواء والخداع والمغالطة والغموض، وقد نجحت هذه الحملة الثقافية في أوائل هذا القرن، لكنها بدأت تتراجع في أواخره.

وهكذا أثبتت ثقافتنا العربية وعلى مرّ سنوات الضعف والانحطاط، أنها لا تنمو، إلا من خلال جذورها، وأن الثقافات الغربية مهما بلغت من قوة فإنها لا تستطيع أن تغير من مقومات الفكر العربي ومعرفته بأصول هذه الحياة الثقافية.

وراحت قوى التبشير والتغريب الثقافي تعمل على تحريف المقومات العلمية والحضارية حين بدأ المضللون يكتبون عن التاريخ العربي والحضارة العربية صفحات زائفة، وكان واضحاً من ذلك إسقاط مرحلة هامة من مراحل تطورنا الثقافي والحضاري.

ولم تتوقف المؤسسات المعنية بل زادت في بلورة أهدافها التغريبية، حين علمت أن المؤسسات التربوية لم تنجح، فانتقلت إلى طرف أكثر فعالية من تلك التي بدأتها بالأمس وبدأت الأقمار

الصناعية والمحطات الأرضية والشاشات المرئية والأجهزة السمعية تعمل على توريد كل ماله بثقافة الغرب وحضارته إلى الدول الدائرة في فلك الغرب وثقافته.. وسرعان ما انتشرت الأشرطة، كما انتشرت الموضات العصرية، وراحت تغزو البيوت الثرية أولاً، ثم بدأت تنتقل تدريجياً عبر مراحل نفسية مهيئة لهذا الغزو الجديد.

ولم تتوقف الحملة عند هذه القشور، بل تجاوزتها إلى التاريخ، وعند الوصول إلى هذه النقاط الحساسة من مكونات الأمم، فإن الأمر يصبح خطراً، وهكذا راحت الصهيونية العالمية بمؤسساتها المنتشرة في فلسطين المحتلة تنشر مزاعمها عن الأرض العربية والإنسان العربي في سلسلة من التشويهات الثقافية والتاريخية معتمدة في ذلك على مجموعة من الحملات النفسية التي نجمت عن الواقع المهزوم أمام الهجمة الصهيونية العنصرية، وقد وقفت أمتنا أمام هذه الحملات النفسية ضعيفة، لكنها مع ذلك بدأت تقاوم من خلال بقائها أو عدم بقائها على الأرض العربية وأصبحت تلك المعركة معركة لأمتنا العربية ولثقافتنا العربية المتزامنة مع وجودنا كله.

وإذا كانت الصهيونية العالمية موجهة ومسيرة من الثقافة الغربية، فإن حملات أخرى بدأت تنطلق من خلال اثارة قضايا كثيرة في مقدمتها حرية الفكر وقتل هذه الحرية في الثقافة العربية، وعجز الفكر العربي عن مواصلة النمو والعطاء في عالم تسوده قيم الغرب الجديدة.. وقد روّجت لهذه الحملات مجلات عربية أشرف على تحريرها أناس تابعون لسلطات الحكم الاستعماري في الأقطار العربية مع مطلع هذا القرن، وتصدى لهذه الحملات التشويهية كتاب عرفوا بالتصاقهم الحاد بثقافتهم العربية وحضارتهم العريقة.

وجاء دور اللغة العربية، حيث تعرضت هي الأخرى إلى تحد شرس حين أعلنت الثقافة الغربية العمل على تجزئة اللغة العربية والقضاء على وحدتها، وتغليب العاميات الاقليمية عليها، وقد بدأت الحملة من منطلق مقارنة لغتنا العربية باللغة اللاتينية التي دخلت المتاحف مخلية الطريق للغات إقليمية كثيرة حلت محلها.. وركزت الحملة هذه على تحجيم انتشار اللغة في افريقيا وآسيا.. حين فشلت في تجزئتها ولا زالت الحملات الاستعمارية توقف زحف لغتنا العربية في الدول الصديقة والمجاورة وذلك خوفاً من تأثير الثقافة العربية على سكان تلك الدول وانبعاثها قوية في تلك الأوساط المهيّأة لها.

ولقد صمدت اللغة العربية أخيراً في وجه هذه الحملات القاسية، ذلك لأن العربية سر خالد، وهي قادرة على استيعاب كل المصطلحات والرموز الثقافية بلا ضعف.

ولقد جاء دور التشويهات التاريخية والفلسفية، فلم تتوقف الغزوة الثقافية المضادة عند حدّ التشويه السياسي، بل تجاوزته إلى تحليل المنهج التاريخي، مدعية أن هذا المنهج لا يخدم التطور الحضاري، وأثبتت الوقائع العلمية بالمقارنة أن منهج البحث العربي هو الذي قصر تقصيراً بيناً في التواصل الثقافي والحضاري ذلك لأنه يقوم على التجزئة بينما يقوم المنهج التاريخي العربي على أساس وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساعها.

وقد أنكرت الثقافة الغربية دور الفلسفة العربية في ظهور تلك الثقافة، وجاء هذا الانكار ضمن حيلة مرتبة مرافقة للمدارس المعنية بالفلسفة في الشرق العربي.

لكن الرد جاء على ألسنة فلاسفة الغرب أمثال جوستاف لوبون، وتوماس كارليل «وعشرات غيرهم حين أعلنوا بصراحة أن ذلك الدور الضخم الذي قام به الفكر الإسلامي والعربي في بناء منهج المعرفة وانشاء المنهج التجريبي العلمي هو الذي مكن اوروبا من صياغة حضارتها وثقافتها المعاصرة.

وكان التعليم وكانت التربية من أخطر المناهج الثقافية التي تعرضت لخطر التخريب والغزو الثقافي، وحين لم تتمكن المدارس الأجنبية في الوطن العربي من استيعاب المجموعات المثقفة وضمها إلى صفوفها في معاداة الثقافة العربية، بدأت الثقافة الغربية تتسلل عبر مؤسساتنا التربوية والثقافية من خلال النشرات والمجلات ومن خلال النظريات العلمية والمدرسية، ولكنها لم تفلح في ثني المثقفين العرب عن الإشادة بثقافتهم القومية وتاريخهم الإنساني في كل مراحل نموه وتطوره.

وحين شعرت الأيدي المسيرة لهذه الحملات بالفشل، أيقنت أن ثمة شيء يحرك إحساس هؤلاء الناس باتجاه تراثهم الثقافي والحضاري، وبدأت سلسلة من الضغوط الحضارية تمارس السيطرة على المنطقة العربية في ظلال الصراعات السياسية العالمية معتمدة على أنظمة الحكم المسيرة لهذه التيارات الثقافية، بحيث تكون قادرة على حجب تيار ثقافي معين، وفسح المجال أمام تيار مضاد للحلول محله، وهكذا أغرقت الأسواق الثقافية في بعض أقطارنا العربية بما هو معاد لأهدافنا ومبادئنا وامتلأت ساحات المدن وأسواقها التجارية بما هو قاتل لطموحات أبنائنا، وانتشرت الأفكار الجديدة عبر سنوات الحواجز الاعلامية المسيطرة، لتحدد الطريق الجديد الذي أرادته السياسات الاستعمارية الفوقية.

ورغم هذا فلم تنجح الحملات المضادة لثقافتنا العربية لأن أجيالنا أصبحت قادرة على التفريق بوضوح بين ما هو صادق وما هو خادع.. وهكذا بدأت الحملات تتخذ مسارات جديدة لعلها تستطيع أن تنال من ثقافتنا العربية ذات الاصالة والمتمكنة من العودة بالروح إلى التراث والتاريخ.

★ ★ ★

تحرير الثقافة العربية من الغزو الثقافي..

في وطننا العربي إحساس حاد بأن ثقافتنا تواجه تحدياً مضاداً، وهذا التحدي الفكري يتمثل في مجموعة من الأفكار المستوردة والتي شكلت إطاراً محاصراً لثقافتنا ترى إلى أي حد يمكن أن يكون هذا الغزو الثقافي ممثلاً في الفكر المضاد ضاراً؟.. وكيف نستطيع رد هذا الغزو وثقافتنا العربية لا زالت في طور النمو؟

إن الدعوة إلى تحرير ثقافتنا من الغزو الثقافي تبرر دائماً بالحرص على التراث الأصيل ومنع الأفكار الآتية من الخارج، لكي تتدرج ثقافتنا العربية مرحلياً ضمن متطلبات العصر.. وهذه الدعوة سليمة إذا راعينا كثيراً من المسلمات الأساسية في هذا الموضوع، وان من يحاول العمل على تحرير ثقافتنا من تيارات الثقافات المضادة إنسان يتحلى بالوعي والحرص.. لكن علينا والحال هذه أن نكون حذرين تجاه تلك التيارات المندفعة نحونا بلا توقف وبطرق ملتوية.

وقد تنبهت كثير من دولنا العربية، إلى أخطار وسائل الاتصال الجماهيرية وبما تنقله من أعمال فنية جذابة ومشوهة كالأفلام والمسلسلات هذه الأعمال الفنية ذات القشرة الهشة التي تتغلغل في كل بيت وتركز على قيمة غريبة غير مقبولة حتى بالنسبة إلى كثير من المجتمعات الصناعية المتقدمة والتي يحذر من أخطارها المفكرون حتى في بلادنا المنتجة ذاتياً. هي التي تشكل فكراً ضاداً ينبغي أن نحاربه.

وإذا كنا حريصين فعلاً على تحرير ثقافتنا العربية، فلا بد أن نسعى من الداخل إلى تحريرها أولاً، ثم نعمل بالتالي على حماية مسيرتها ضمن معطيات العصر.

وهنا يطرح السؤال التالي نفسه..

هل حضارة الغرب اليوم في دور العطاء، حتى تبهر النفوس وتثير الإعجاب؟

وهل أعطت وما تزال تعطي غير الظواهر المادية والاستهلاكية والترفيهية ولماذا بقي إنسان تلك الحضارة تائهاً غريباً غير مطمئن إلى حاله؟

إن المفكرين هم الذين أجابوا على هذه الأسئلة..

فقد قال مؤن باين.. نحن على حافة الهاوية..

وقال ارنولد توينبي نحن البشر بكل تقدمنا العقلي وقدراتنا الفنية نبدو وكأننا قد ورثنا نفس العناصر الحيوانية والالية التي كان عليها أجدادنا البدائيون.

وتقول الكاتبة الفرنسية (مدام سنت بوانت) إني أتهم المدنية الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة التي تزعم أنها أُلقيت على عاتقها في الأجيال الأخيرة.

وهذا يكفي للدلالة على أن ثقافة الغرب لا زالت قلقة، وعلينا أن نتنبه إلى أن ثقافتنا العربية لا بد أن تقف بعيداً عن منحى الخطر. لأن من أهداف الغزو الفكري المضاد هو مسخ ثقافتنا العربية وسد منابع الاصالة والابداع من حولها حتى يتوقف نموها وتطورها.

ولقد عمدت التيارات الفكرية المضادة والتي راحت تغزو عالمنا العربي بلا استثناء، راحت هذه التيارات تعمل على تحريف المقومات العلمية والحضارية، وكان الهدف من ذلك كله، اسقاط مرحلة هامة من مراحل تطورنا الثقافي والحضاري والذي كان له الأثر الأكبر في ميلاد النهضة الأوروبية الحديثة.

ثم مضى الهدف إلى خلق التبعات الثقافية في الأوساط العربية، حتى أدى ذلك إلى عملية تفتيت القوى الثقافية والوطنية واضعافها، فأصبحت بعد ذلك مجتمعاتنا هزيلة ممزقة.

وحرص المثقفون العرب، منذ البدء على تحمل المسئولية الثقافية تجاه ما يجري، ومن خلال نضالهم الطويل، تشكل تيار واع ورد ذلك في الغزو في محاولات جادة إلى تحرير الثقافة العربية من كل أشكال التسلط والقمع الفكري.. وساعد على ذلك تلك الروح القومية المتأصلة في أولئك المثقفين الذين وضعوا أقدامهم على أرض قومية متينة، وراحت هذه الأرض تمدهم بالثراء اللغوي الخصب، وتدعم خطاهم بسلسلة من الموروثات الحضارية والتاريخية والإنسانية، وهكذا وقفت ثقافتنا مرة أخرى في ظل متغيرات العصر، تدافع عن مقومات حياتها لضمان استمرار نموها وتطورها من أجل ثقافة عربية متقدمة.

مفيد نحلة

رابطة الكتاب الاردنيين

المصادر والمراجع

١ - أنور الجندي، أصول الثقافة العربية، القاهرة، دار المعرفة ١٩٧١ ص: ٢١.

٢ - عبد الله عبد الدايم، أزمة الثقافة في الوطن العربي، مجلة الفكر العربي العدد الثالث: السنة الأولى، ١٩٧٨ م، ٩ - ص ٤ - ٩.

٣ - د. عمر الشيباني، التربية والتنمية الثقافية، مجلة الفصول الأربعة، العدد ٩ السنة الثالثة ١٩٨٠.

٤ - د. فؤاد زكريا، الأفكار المستوردة، مجلة العربي، العدد ٢٣٩، ١٩٧٨ م ص: ٦.

٥ - الشاذلي القليبي، الثقافة رهان حضاري، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٨، ص: ٧٣.

٦ - د. زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، بيروت ١٩٧١، دار الشروق.

٧ - عبد اللطيف شرارة، الجانب الثقافي من القومية العربية دار العلم بيروت ١٩٦١: ص: ١١٤.

٨ - د. عوني الشريف قاسم، مقاومة الانهزام الثقافي أولاً مجلة العربي العدد ٢٦٥ ص: ٤٩.

٩ - د. فؤاد زكريا، الأفكار المستوردة، مقال ثقافي - مجلة العربي، العدد ٢٣٩. ١٩٧٨: ص ١٠.

١٠ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر بيروت ١٩٧١ م.

١١ - عبد المنعم الصاوي، عن الثقافة، القاهرة.

١٢ - سالم السويهدي، حول الثقافة والثورة الثقافية.

١٣ - الثقافة والتكامل القومي، عبد الحميد يونس.

١٤ - محمد منير موسى، أصول التربية الثقافية والفلسفية.